النزعةُ الاستشراقيّة في أدبياتِ الرحّالةِ البريطانيين في القرن التاسع عشر

أ.م.د فارس عزيز حمودي جامعة الموصل/ كلية الآداب

تاريخ الطلب: ٢٠٢٣/٥/١٠

تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٦/٢٢

مقدمة

غالباً ما كان الجهدُ الاستشراقي ينطوي على مستوياتٍ مختلفة، ولكلِّ مستوىً منهجٌ ووسيلة، ويعدُّ أدبُ الرحلات جهداً استشراقيّاً بامتياز؛ إذا نظرنا إليه بوصفه محاولةَ استكشافِ الشرق، والبحثَ فيما يتعلَّق به من أحوال. والاختلافُ بين الكتاباتِ الرِّحلية والاستشراقية تتمثّل في أنَّ الأخير ذو مسحة الأكاديمية؛ في حين يتغلغلُ الأدبُ الرحلي في مسامّ المجتمعات؛ معتمداً على المعايشة؛ وعلى وطريقة السرد؛ والنزعة الأدبية؛ والانطباع الذاتي.

تقوم الدراسة على تحليل أنماطٍ من حمولاتِ الكتابات الرحلية البريطانية في القرن التاسع عشر، وتبيان أهمِّ السمات التي تجمعها، لاسيما تلك التي تثير إشكالاتٍ أخلاقية ومعرفية.

وتأتي خصوصيةُ القرن التاسع عشر مِن كونه عصرَ الكشوفات والتمكّن الأوربي الذي صاحب الحركات الاستعمارية، وهو ذلك العصر الذي توسّع فيه الاستكشاف، والتغلغل في الشرق العربي. والأدب الرحلي – حاله حال الاستشراق – قام على مسوغاتٍ ذكرها الرحالةُ والباحثون والناقدون لمنتجاتهم، وهي مسوغاتُ تحتاج بالفعلِ إلى مزيدٍ مِن العناية، وتقع ضِمن تحليل الخطاب وتفكيكه؛ بغية سبْرِ كنهَه مفرداته التي تأسّس عليها.

وتفكيك خطابِ الرّحالة ليس بالأمر الهين؛ نظراً لاختلافِ دوافعِهم وحمولاتهم الثقافية والأخلاقية، ولم يعُد الدافع الديني في تلك الفترة مِفتاح ذلك الخطاب؛ بل أصبحت التعقيداتُ الحضارية والتغيرات الثقافية والانتماءات السياسية عواملَ تحكم ذلك الخطاب.

وخطابُ الرحالةِ غالباً ما يثير المتعةَ ويُشبع الفضولَ؛ دون أنْ يشعر القارئ الغربيُّ – فضلا عن القارئ الشرقي – أنه بصدد أفكارٍ مغلوطةٍ أو خيالية أصلاً. والقارئ الغربي كما الرحالة يبحث عمّا يتوافق وثقافته وذوقه وحاجته النفسية؛ ولا يدرك ثقلَ التبعاتِ التي تخلّفها هكذا نصوص على حقيقة الآخر وعلى صورته الحضارية.

وبالنتيجة فالجانب السلبي في كتابات الرحالة يُسهم في تشويه الحقيقة؛ ويعمل على إحداث الشُقةِ بين المجتمعات، لكن هذا الأدب لا يخلو مِن فوائدَ ومعلوماتٍ ثرية؛ ذات أثر ثقافي ومعرفي لا يُنكر، فضلاً عن بعده التواصلي وما يكتنفه من سرد مشوق ومتعة فنية.

كلمات مفتاحية :رحالة، استشراق، أدب رحلات

Abstract

The Orientalist effort often contained different levels, and each level had a method and method. Travel literature is an oriental effort par excellence; If we look at it as an attempt to explore the East, or to search for conditions related to it.

This study is based on analyzing the patterns of British nomadic writings in the nineteenth century, and showing the most important features they combine, especially those that raise ethical and cognitive problems.

The peculiarity of the nineteenth century comes from the fact that it was the era of European discoveries and mastery that accompanied the colonial movements, that era in which exploration expanded and penetrated into the Arab East.

Deconstructing the discourse of travelers is not an easy matter. Due to their different cultural and moral motives and loads, the religious motive in that period was no longer the key to that discourse; Rather, the complexities of civilization and cultural and political changes have become a factor governing that discourse.

The discourse of the traveler often arouses pleasure without making the western reader, let alone the eastern reader, feel that he is facing erroneous or imaginary ideas.

As a result, the negative side in the writings of travelers contributes to distorting the truth. And thus works to cause discord between societies; Which often have little to do with the behavior of politicians or ideologues, religious or ethnic.

Keywords: Travelers, Orientalism, Literature

البحث

مِن المفيدِ بدايةً إعطاء نبذة عن مفردات عنوان البحث، ونبدأها بمعنى النزعة. فـ " النزعةُ Tendencyميلٌ يتبادر في الشعورِ ويصبح موضوعاً للتصوّر الذهني "[1]، والنزعةُ " توجّه نشاطَ الإنسان إلى غاياتٍ يجد في الوصول إليها لذة "[2]، ومن هذا يتبيّن أنّ النزعةَ ميلٌ فكري ونفسي وتوجّهٌ يسير على وفقه الفردُ أو الجماعة.

أمّا الاستشراقُ: فمِن تعريفاته بحسب ما يذكر جويدي " أنه وسيلة لدرس النفوذ المتبادل مع الشرق. وغرضُه ليس مقصوراً على درسِ اللغات أو اللهجات، أو تقلبات تواريخ الشعوب فحسب؛ بل أنَّ علمَ الشرق بابٌ من أبواب تاريخ الروح الإنساني ... وليس صاحب علم الشرق مَن يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة، أو يصف عادات بعض الشعوب، بل من جمَع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق، وبين الوقوف على القِوى الروحية والأدبية التي أثّرت في تكوين الثقافة الإنسانية.[3]

وبحسب تعريف جويدي تدخل ضمن الاستشراق جهودُ الرحالة؛ بوصفهم مكتشفين ومحقّقين في أوضاع الشرق. ويختلف المستشرقون عن الرحالةِ بأنهم في الغالب يأخذون بالنسقِ الأكاديمي في كتاباتهم، بينما تتّسمُ أدبياتُ الرحالةِ عموماً بالوصفيةِ، واعتماد جانب الذاتية، والميلِ إلى الأسلوب الأدبي.

أمّا الأدبياتُ الرّحلية: فهي الكتابات السردية بأنواعها؛ سواء أتت بصيغةِ قصص أو تقارير أو كتب أو حتى مذكرات سِيَرية، وهي نوعٌ مِن الأدبِ؛ له أصوله ومراميه الفنيّة والمعرفية.

معالمُ الأدب الرّحلي البريطاني في القرن التاسع عشر

منذ نهايةِ القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر " تزايدت أعدادُ الذين سافروا من أوربا إلى الشرق، وهو ما يعني توفرَ المزيد مِن المعلومات. والشرق حينها لم يعد يعني تركيا تحديداً؛ على الرغم مِن أنَّ الاهتمام الأوروبي بالإمبراطورية العثمانية بقي متقداً "[4]. وفي الوقت نفسه كان السفر إلى الشرق بحاجة إلى معلومات وتثقيف بالأمكنة التي يقصدها الزوار؛ وهذه المعلومات لا يقدر على تحصيلها أحدٌ مِثلُ الرحالة، لذلك تزايدت الحاجةُ إلى إرسال المزيد مِنهم إلى الشرق. أمّا الثقلُ الأكبر في استكشاف الشرق فكان الدافع السياسي المتمثّل بالاستعمار وطموحه متعدد الاتجاهات. ولا شك كانت الهيمنة على الشرق من لدن القوى الاستعمارية تحتاج إلى قوةٍ معرفيّة وجهد استخباراتي؛ لذلك كان جزءٌ من النشاط الرّحلي في القرنين الثامن عشر والتاسع نشطاً ومدعوماً.

كانت أدبيات الرحالة مختلفة التوجهات؛ لكن الغالب فيها صدورها عن ذاتٍ مستعلية؛ رأت في الشرق جانباً ضعيفاً تمارس مِن خلاله دورَ الوصي؛ حتى في كثيرٍ من الرحلات ذات الطابع الشخصي. وستكشف العينات التي يذكرها البحث عن كيفية امتزاج الحسّ الذاتي بالأهداف السياسية والعقائدية؛ لتنتج خطاباً عن الشرق يُختَصر في رؤى يشوبها الإقصاء في الغالب.

وإذْ ركّز البحثُ على جوانبِ التحاملِ في أدبياتِ الرحالة الإنكليز فهذا لا يعني عدم وجود رحالة منصفين أو موضوعيين؛ لكنَّ الغالب عليهم في تلك الأثناء امتدادهم الاستعماري ونزوعهم الاستشراقي الذي يختصر الشرق، ويحاول جعْله عينةً استكشاف وتابعاً لإرادة القويّ المهيمن. ولم يكتف كثيرٌ مِن الرحالة بوصف الشرق؛ بل حاولوا طمسه من خلال التركيز على عيوبه، وهذا كان لغرضين:

الغرض الأول لأنه يتناسب وهاجس الاستعلاء الذي انطبعت به الشخصية الإنكليزية لاسيما في العصر الفكتوري(*5)؛ عصر الغنى والقوة والتوسع والصرامة الأخلاقية، وهو أيضا عصر الجمود والبرود في الأدب. و" حكم الملكة فكتوريا زال بوفاتها عام ١٩٠١م ، إلا أن الإنتاج الأدبي لذلك العصر انتهى منذ عام ١٨٨٠م، عندما ثار أدباء أمثال صموئيل بتلر، وفيتز جيرالد، الذين عملوا على تغيير الوضع التقليدي لذلك العصر فكرياً ودينياً وثقافياً " .(6)

الغرض الثاني الإمعان بطمس حقيقة الشرق لأن الاستعمار كان يحتاج تغطيةً دعائيةً وأخلاقية تبرّر سلوكه، وليس هناك مِن مسوّغ أفضل من رمْي الشرق بالقصور والدونية، والحاجة إلى الوصاية. لذلك كان لإطلاق صفةِ الشر على مجتمعات مُستضعفة أو متخلفة طريقة لخلق كبشِ فداء من خلال كيْلِ الاتهامات.

وإطلاق صفةَ الشر له جذور في بعض الثقافات الأوربية فمثلاً " أوروبا القرون الوسطى ربطت بين النساءِ والشيطان، ورأت فيهنَّ عدواتٍ للكنيسة والمجتمع، الأمرُ الذي برَّر مُطاردةَ الساحراتِ ومحاكمة النساء بتهمِ الجرائم الجنسية، وأكلِ لحومِ البشر، ومعاشرة الأرواح الشريرة .(7)"

ومثل هذه الصورةِ عن الآخر الشرقي انتشرت في الكثير من مواقف أوربا السياسية والدينية؛ لاسيما في العصر الاستعماري، وذلك بسببِ الحاجةِ إلى غطاءٍ يبرر أفعالَ الاستعمار. فالشرقُ بحسبِ تلك الصورةِ ليس متخلّفاً بسبب تخلّفه بالفعل؛ لكن يُراد له أنْ يظهرَ بصورةِ المتخلف الفاسد؛ لأسبابٍ تبرّر الأفعال التي تصدر عن سلوك الاستعمار، الذي يحتاج إلى تبريرات أولُها الدونيّة الحضاريةِ، وثانيها التخلّف، ثم تأتي الصفاتُ السلبيةُ الأخرى لتعزّز هذين التبريرين.

وتتضمنُ أغلب الرواياتُ الرحلية والاستشراقية تركيزاً على الصفاتِ التي تُظهر الشرقَ مُختلفاً عن الغرب ومغايراً له، وتُخفضه إلى مرتبةِ الكيانِ الذي لا صلاحَ له، " وكان في تلك الرواياتِ التي تصف ذلك (الآخر) مقولتانِ ملفتتانِ للنظر: الأولى الادّعاءُ بأنّ الشرقَ مكانُ الفسقِ والملذاتِ، والثانية أنه عالمُ العنف المُتأصّل " .[8]

والقرنُ التاسع عشر هو ما أفرز تلك المقولات؛ فقد شهد مواجهةً بين الغرب والشرق تمثّلتْ بقوى الاستعمارية؛ " فإذا ما صُوِّرت شعوبُ الشرق بأنها خاملةٌ، وليس لها قدرة على أنْ تحكم نفسَها؛ عندئذ يجد الاستعمارُ المبررَ ليتدخّل في شؤونها. فالتسلّط السياسي والاستغلال الاقتصادي يحتاجان إلى لغةٍ ناعمةٍ لتظهرهما بمظهر متمدنٍ. لذلك استخدم العقلَ بطريقةٍ مراوغةٍ، وجند العلمَ والتاريخَ لخدمة أغراضه؛ فصورةُ المستعمِر يجب أنْ توحيَ بأنه لم يأتِ كمستغِل، وإنما صاحب رسالة تنويرية يؤديها! "[9]، بغضّ النظر عن طبيعةِ تلك الرسالة ومرجعياتها. وكتاباتُ الرحالة آنذاك تُعد مِن أنجع الوسائل الاقناعية للتعبير عن ذلك الهدف.

والرحالةُ الغربي كان آمنا مِن النقد والمُساءلة؛ إمّا بسبب جهلِ مواطنيه بما يكتب، وإمّا بسببِ عدم الاكتراث؛ " فمَن مِن الذين يقرأون له ويستمتعون بالقصص التي تداعبُ الخيالَ سيأتي إلى المدينةِ المنورة مثلاً ليتحرَّى عن مكانةِ النخلةِ في عقيدة المسلمين! التي تحدَّث عنها الرحالة بيرتُن[10]" . إنَّ هذه المسوغاتُ التي صدرت عن الرحالة الأوربيين وكانت رديفاً للكثير من التوجهات الاستشراقية المُتحامِلة تحتاج إلى مزيدِ عنايةٍ تقع ضِمن تحليل الخطاب وتفكيكه؛ بغية سبْر كنهَه ومفرداته التي أسّس عليها خطابَه.

في طبيعةِ خطاب الرحالة

إنّ " تفكيك خطابِ الرّحالة ليس بالأمر الهين؛ نظراً لاختلافِ حمولاتهم الثقافية، ولم يعد الدافع الديني مِفتاحَ ذلك الخطاب؛ بل أصبحتْ التعقيداتُ الحضارية والتغيرات الثقافية والسياسية عاملاً يحكم ذلك الخطاب، ومقولةَ: الغرب يعرف عن الشرق أكثر مِن الشرقيين لا تصادرُ حضورَ الشرقي ووعيه فحسبُ، بل وعي الغربي أيضاً؛ وجعله أسيرَ ما يقرأ "[11]؛ فالقارئُ الغربيُّ أيضاً يقع ضحيةَ ما يُطرح أمامَه مِن معلوماتٍ وخطابٍ قصصي مِلؤه الإثارةُ الغرائبيّةُ والتشويق الذي يمتاز به أسلوب كثيرٌ مِن الرحالة.

وجرياً على ما يراه إدوارد سعيد فالأدبُ الرّحلي يمثّل شخصية الكاتب وخصوصيته؛ لذلك من العسير تجريدُ نصوص الرحالة من أثر أمزجتهم وشخصياتهم. يقول سعيد معارضاً رؤية فوكو: " كلَّ مؤلف يضفي بصْمَته على طابع النص الذي يكتبه، ولولا ذلك لأصبحت لدينا مجموعةٌ مجهولة

المؤلف؛ من النصوص تمثل الاستشراق أو غيره ... فما الاستشراق إلا نظامٌ للاستشهاد بكتابات المؤلفين، وكتابُ الرحالة لين (أخلاقُ المصريين المحدثين وعاداتهم) استشهد به كتّابٌ مثل نيرفال وفلوبير وبيرتون، وكان نيرفال يستعير فقراتٍ من الكتاب ويستعين بحجيةِ لين في وصف مَشاهدِ القرى في سوريا؛ لا في مصر، ومِن المُحال تفهُّمُ ذيوع صيت لين دون إدراك السمات الخاصة التي يتسم بها نصُّه ".[12]

لذلك فإنّ مسألةَ الإقلالِ مِن قيمةِ المؤلف التي راح يقول بها الكثيرُ من النقاد الحداثيين يرفضها سعيد، ويؤكّد على أهميةِ المؤلف، بدليلِ أننا غالباً ما نعزو المرجعية إلى الأشخاص قبل نصوصهم، لنعطي تلك النصوص ما يعضدها.

فذاتية كاتب الأدب الرّحلي حاضرةٌ فيما يكتب، وهو منفعلٌ بالحدَث الذي يكتب عنه. والقارئُ الأوربي يبحث عمّا يتوافق وثقافتَه وحاجته النفسية؛ دون أنْ يعي ثقلَ التبعاتِ التي تخلّفها هكذا نصوص على صورة الآخر. لكنه يعزوها إلى مصداقية الرحّال؛ دون أنْ يتحققَ من هذه المصداقية.

فمثلاً " كانت الطريقةُ التي تُصوّرُ بها النساء تتماشى مع التحاملِ الفيكتوري حيالهن: فالنساءُ هنَّ أدنى مستوى مِن الرجال. أمَّا الشرقياتُ فأدنى مرتين؛ لكونهنَّ نساءً وشرقيات معاً، ولهنَّ صفة السِلعةِ أكثر من الغربيات، فهن جزءٌ مِن مقتنيات الإمبراطورية التي للرجال البيض أنْ ينالوهنَّ متى يشاؤون"[13]؛. ورأيُ لين يُؤخذ على أنه مسلماتٍ أتت من رجل ذي خبرة.

وإذ كانت الصورةُ التي يقدمها الرحالةُ تترصّد العلاقةَ التي بين الرحالةِ والبلد الذي رحل إليه " فمِن هذا المنطلق غالباً ما كانت تلك الصورةُ تُتخذ نسقاً أدبياً، على النحو الذي يصفه هنري باجو بالصورة الأدبية التي تكشف الفوارقَ بين ثقافتين متغايرتين [14]"؛ لكن الذي حصل مع الرحالةِ البريطانيين – في تصوير الشرق العربي – أنَّ أدبياتهم كانت قائمة على انتخاب الصورِ المعبّرة عن الانحطاط الثقافي.

وهنا يتواردُ سؤالٌ عن تلك الأحوال مفادُه: مَن الذي يحدد خطابَ الرحالة وما العوامل التي تشكّل نمطية توجههم؟. لاشكَّ هناك عواملُ كثيرة هي التي حدّدت تلك النمطية؛ بل شكّلت طبيعةَ الخطابِ؛ فضلاً عن تأثير أذواقهم الشخصية وثقافتهم وتركيبتهم الأخلاقية فيما كتبوا.

وعلى هذا ليس الرحالةُ وحدُه يوجّه نطاق اهتماماته بل البنية السياسية والثقافية التي خرج منها؛ لذا نجد مرحلةَ العصر الفيكتوري؛ تطلب دعماً لمصالحِها. والرحالةُ الذين ظهرت لهم القدرةُ على إتمام رحلاتهم هم مَن وجدوا دعماً مِن حكوماتهم، فمثلاً كانت شركةُ الهند الشرقية " تشجّع جهودَ الرحالة

لوصف البلاد التي كانوا يسافرون إليها، وكانت موْجةُ الولعِ بالأثريات قد تطوّرت مِن مجردِ ميلٍ فرديٍّ إلى اهتمامٍ قوميٍّ " ،[15]وبذلك أنتجتْ بريطانيا في نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر كمًّا مِن أدبِ الرحلات؛ في محاولةٍ منها معرفة العالم الذي كانت بصدد غزوه.

ويحلّل إدوارد سعيد النفسيةَ التي تحكم الرحالةَ آنذاك؛ كاشفاً عن حقيقةِ سلوكِه ويتخذ مِن الإنكليزي بيْرتُن مثالاً؛ يقول: " لا يقدم بيرتُن الشرقَ مباشرةً؛ بل يقدم كلَّ شيءٍ من خلال تدخلاته التي تنمّ عن معرفة مُستفيضة (وكثيراً ما تكون بذيئة) تذكرنا بأنه تكفّل بإدارة الحياة الشرقية تحقيقاً لقصصه. وهذه الحقيقة ترفع مِن وعي بيرتُن إلى موقع السيادة على الشرق. وفي هذا الموقع تلتقي فرديتُه وتمتزج بصوت الإمبراطورية التي تمثل نظاماً للعادات المعرفية. فعندما يقول في كتاب (رحلة الحج) إنّ مِصر كنزٌ لمَن يفوز به، فهذا الصوتُ يُغذّى صوتَ الطموح الأوروبي لاستيلاء على حكم الشرق ".[16]

ويقع في هذا السياق كتابُ إيوثن الذي وضعه كنكليك Kinglake[17]؛ وترجمه محمود العابدي بعنوان رحلة إلى المشرق. والكتاب يشبِه كتاب بيْرتُن الذي كان مجرّد قصصٍ شخصية لرحلةٍ حجّ إلى المدينة ومكة (١٨٥٥ – ١٨٥٦)، ويتبع التسلسلَ الزمني بصورةٍ يسير فيها السردُ في خطٍ مستقيم. وقد " حظيَ الكتابُ بشهرةٍ لا يستحقها، فهو كتالوج لمشاعر العرقية التي يتباهى بها الكاتب. وغرضُه الظاهري مِن كتابه أنْ يثبتَ أنَّ الرحلةَ إلى الشرق مهمة في تشكيل شخصيته، ولكنْ يتّضح أنّ هذا الغرض لا يكاد يتجاوز معاداته السامية، والتعصب العنصري ".[18]

والغريب أنَّ آراءَ كنكليك تكاد لا تتأثر برؤيته للشرق بل " كان اهتمامُه بإعادة تشكيل ذاته وإعادة تشكيل شرق (ميت او مومياء ذهنية) يفوق اهتمامه بمشاهدة ما هو واقع "[19]. والأدهى مِن هذا أنه يتباهى بفائدة إخضاع الشرقيين المتواجدين في الشرق، لأنَّ هذا الخضوع يوفر له الشعور بالاستعلاء. يقول: " إنّ النتائج الآنية لخضوع الآسيويين للأوروبيين قد تكون ضروريةً للأوروبي الموجود في الشرق، وشخصياً لا أحبُّ ممارسة هذه الظاهرة لأستفيدَ منها ".[20]

ومع ذلك فالاختلافُ بين الرحالةِ الإنكليز بيّنٌ، ويعكس توجّه كلّ منهم وطبيعة خطابه وأسلوبه، لكنْ غالباً ما تجمع كثيراً مِنهم خصالُ التباهي والفوقيّة؛ كالتي نجدها في " آراء كنجليك التي تعبّر عن إرادةِ السيطرةِ على الشرق، ولا نجد في كتاباته دليلاً على أنَّه حاول أنْ يبتدع رأياً جديداً، وهذا فارقٌ بينه وبين بيْرتُن الذي كان مغامراً استطاع الصمودَ أمامَ أيّ مستشرق أوروبي، وكان واعياً بضرورةِ منازلة المستشرقين الذين يرتدون زيّاً فكرياً واحداً، ويديرون المعرفةَ الأوروبية عن الشرق.

واحتقار بيرتُن الصريح لخصومه يتجلّى في تصدير ترجمته لألف ليلة وليلة، ويجد متعةً طفولية في إثبات أنّ علمه يفوق علم أيّ مستشرق ".[21]

ومِن هنا يرى البعضُ أنّ ما قدّمه الرحّالةُ البريطانيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعدُّ خدمةً لم تتهيأ للرحالة الأوربيين في عصور سابقة؛ على الرغم مما حوتْه رحلاتُهم مِن تعسفٍ حِيال الشرق" فمشهدُ وجودِ رحالةٍ قبل القرن التاسع عشر كان مألوفاً للقرّاءِ الأوروبيين والإنجليز؛ حيث قدّم العديدُ منهم وصفاً لجوانبِ الحياة الشرقية، لكنَّهم أضاعوا فرصَ تقديمِ إسهاماتٍ جديدة للحياة الشرقية. وبهذا الصددِ تذكر كاثرين تيدريك Kathryn Tidrick أنّ الرحالةَ أمثال بيرتُن ولورنس جعلوا الأماكن التي استكشفوها أكثر واقعية؛ مِن بعد أنْ كانت مؤرِّقة للوعي، وهي شخصياتٌ دفعت نفسَها إلى أقصى حدود التحمّل الجسدي والعقلي، لتغير العلاقة الاستثنائية مع الجزيرة العربية والأماكن الأخرى التي استكشفوها " .[22]

إنّ الكثيرَ مِن الرواياتِ التي نقلها الرحالةُ عبارةٌ عن سردٍ مليءٍ بالأخيلة أو التحامل، وهو سلوك رفضه رحالةٌ آخرون؛ نظراً لِما فيه مِن غبْن للصورة الحقيقية عن الشرق؛ الأمر الذي دفع الرحّالةَ ألبرت سميث في كتابه شهر في القسطنطينية إلى توجيه غضبَه وشكّه حِيال العديد مِما أورده أولئك الرحالة. يقول " لقد عملت كلَّ ما بوسعي لأنال مِن تلك الكتابات؛ نظراً لِما خالَطها مِن كذبٍ يستغل ذهن القارئ مِن خلالِ إثارة الأخيلة بالأسلوب المُنمق"[23]، ف سميث هنا لم يتطرّق لأثرِ تلك الأخبار والروايات – التي داخلها الخلط ومجافاة الحقيقة – على تشويه صورة العرب والمسلمين فحسب؛ بل أشار أيضاً إلى ما أوردناه آنفاً عن أثر هذا الخلط في إرباك ذهن القارئ الغربي نفسه.

النزعة الرومانسية ونساء الشرق

أمّا النزعةُ الأخرى التي تطبْع خطابَ أولئك الرحالة فتتمثّلُ بالمسحةِ الرومانسي، المختلطة بالحديث عن النساء، وهذا النزوع أحدُ عواملِ الترويج لكتاباتهم؛ نظراً لِما يثيره مِن أخيلةٍ، وما يحدثه مِن متعة في ذهن القارئ الأوربي. وبدورها أسهمتْ النزعةُ الرومانسية في التأثير على الأدباء والرسامين؛ فنصوصُ الرحالةِ " حملت الأدباءَ والرسامين على أنْ يستغرقوا في تخيّل شرق سحريٍّ؛ بتزامنٍ مع ما كان يتمّ مِن ترجمةِ النصوص ذات البُعد الخيالي والرومانسي كألف ليلة وليلة وسواها. فمثلا أصبح الرحالة إدوارد لين[24] في كتابه (مصر الحديثة) مَصدراً أساسياً للوحاتِ التي تصوّر عالمَ الحريم (النساء). والحريمُ مِن الرموز الأكثر اعتماداً على العجائبية. وقد وجدت الفكرةُ التعبيرَ الأكثر صراحة في عمل الرسام جان أوغست Jean Auguste، في لوحتِه المحظية التركية العظيمة، وأتبعها بعمَليْه الشهيرين العيدُ، والحمام التركي " .[25]

ويرى بيرتُن أنّ لين " يصف مِصرَ التي عايش مجتمعها بأنّها مخزنُ السِحر والغموض، والتنجيم والأفيون، والمشعوذين، والأفعال الشاذة التي تفوق الخيال ... وفي كتاباته كان هناك البغضُ والكراهية المغلّفان بالتعصب الديني "[26]. وكأنّ لين ذهب إلى مِصر ليستقصيَ عيوبَ المجتمع المصري آنذاك؛ والذي كان فعلاً يعاني مِن الظلم والتخلف والانكسار " لكنّ البؤرَ التي ركز عليها هي بالقطعِ ليست كلّ ما يمثّل المجتمع المصري آنذاك؛ لكنَّه لم يشِرْ إليها إلا نادراً في كتاباته.

والمبالغةُ في تقصي عيوبِ المجتمع المصري من لدن لين اضطرَّت الرحالةِ بيرتُن إلى أنْ يوجّه نقدَه له، ولم يطلق بيرتُن نقوده تلك إلا بسبب ما رآه في مِن مبالغاتٍ تكثّفتْ أحيانا حول " الحديث عن شريحةِ الغوازي والعوالم في المجتمع المصري، وكأنه أنفق جلَّ رحلتَه لتتبّع هذه الفئة مِن المجتمع حصراً، فهو يصف بدقةٍ أخبارَهم وصفاتهم وأماكنهم وأزياءهم "[27]، ناهيك عمّا وصفه مِن أمورٍ أخرى جسدية لا نريد الخوض فيها. والأمرُ نفسُه جعل الناقدَ دانيال مارتن يبدي امتعاضه مما كتبه لين؛ مشيراً إلى افتقاره إلى التحليل، والاكتفاء بالوصف؛ بل أنَّ كتاباته تشكل صورةً غير منهجية، يقول: إذ " أمضى لين وقتاً طويلاً في مِصر وكتب في وصفَ عادات المصريين المعاصرين، لكن مُجمل كتاباته هي كتابات اثنوغرافية؛ تفتقر إلى التحليل ".[28]

وبخصوص بيرتُن هل بالفعل تجاوز هو النقودَ التي وجّهها إلى لين؟؛ لاسيما بخصوص ترجمة ألف ليلة وليلة؛ أمْ أنّه كرّرها على الأقل مِن حيث الموقف النفسي ونزعة الاستعلاء في كتاباته!.

في الواقع كان لين " يشبه سلَفه بيرتُن حين يصف نفسَه برجل الإمبراطورية؛ الذي تدرّب في جيشها، وتعلّم لغاتِ مستعمراتها، وعبَّر عن مفاهيمها ومعتقداتها الإمبريالية. ولكنه كان يعبّر عن تلك المفاهيم بطرقٍ فجّة، فكان لِزاماً أنْ يلامَ على هذه الخطيئة، فتعبيره الفاضح لنزوات عصره (هو) كان يشكل تهديداً للبيروقراطية الحذرة التي تؤثر الكتمان".[29]

إنّ السمةَ الشخصية والوصفية هي الغالبةُ على عمله الاستشراقي الذي غالباً ما ينزع إلى الإعمامِ وطرح الأفكار والأحكام في كل القصص التي يسردها والملاحظات التي يدونها، وقد لخص ادوارد سعيد هذه القضية قائلا:

" يشغل عملُ بيرتُن الذي يستند إلى خبرته الشخصية موقعاً وسطاً بين أنواع الاستشراق التي يمثلها إدوارد لين، من ناحية. وقصصه الشرقية مبنية بناءَ رحلات الحج ... وقد أصاب توماس أسّاد في اعتباره الأول في سلسلة الكتاب الذين يتميّزون بالفرديةِ المتطرفة، ممن قاموا في العصر الفكتوري برحلات إلى الشرق " .[30]

ومِن المفيد أنْ نقارنَ هنا بين موقف كل من (بيرتُن) و(لين)؛ من قضية المرأة الشرقية، فعلى الرغم من اختلاف شخصيتيهما فإن لهما الموقف ذاته؛ حيالها. ولنسمع ما يقوله (لين): " إنّ نساء مصر هنَّ أكثر تسيّباً من كل النساء الأخريات، وإذا ما أعطين أيّ نصيبٍ من الحرية فإنّ أكثرهن يسئن استعمالها، ولا يمكن اعتبارهنَّ في أمان؛ ما لم يُغلق عليهن بالقفل والمفتاح. كان (لين) يؤمن بأنَّ سلوك النساء الشرقيات فريدٌ مِن نوعه، وليس هناك ما يماثله في الغرب، وأنّ الأوروبية لا يمكنها الوصول إلى ما تنغمس فيه النساء المصريات... " .[31]

هذه الطريقةُ في تصوير النساء كانت تتماشى مع التحامل الفيكتوري حيال النساء عامة: فالنساءُ أدنى مستوى مِن الرجال. " أمّا الشرقيات فأدنى مرتين لكونهنَّ نساء وشرقيات معاً، ولهنَّ صفة السلعة؛ أكثر مِن الغربيات، لقد كنَّ جزءاً مِن مقتنيات الإمبراطورية والغنائم التي للرجالة البيض أنْ ينالوها متى يشاؤون. وهكذا أسهمت ألف ليلة وليلة في تكريس المفهوم الفيكتوري عن النساء الشرقيات، وجاءت ترجمةُ بيرتُن لتغني الأسطورة وتدعمها. فالهوامشُ التي أضافها إلى القصص أوضحت الطبيعة « الشهوانية » لنساء الشرق "[32]. أيْ أنّ بيرتُن حين لا يجد نصوصاً من ألف ليلة وليلة؛ ولا في السرد الرحلي تثير الغريزة يَعمَد إلى اصطناعها؛ عبر هوامش تعفيه من التلاعب بالنص، لكنها ترسّخ طريقتَه في تسليع النساءِ الشرقيات واختصارهن في قضايا الجسد. فالتكسبُ والطموح إلى الشهرة كانا من أهم دوافعه إلى نشر ألف ليلة وليلة وإشباعها بالحواشي والتعليقات المثيرة. ويظهر هذا فيما ذكرته زوجته عنه، تقول:

" أعرف أنّ هذا الكتاب جاء نتيجة لمرضه خلال العامين الأخيرين من حياته، لم يكن بمستوى أعماله السابقة. لا ينبغي أنْ أجرؤ على حرق سيرته ذاتية، التي كتبها بنفسه. ومِن أجله نسخت له كتاباته حتى أنهكت نفسي. كان زوجي لين يقول: جاهدت سبعة وأربعين عاما، ولم أُقابل بإطراء، ولم أجدْ ما استحقه مِن شكر، بينما وأنا أترجم كتاباً مثيرًا للشك في شيخوختي، أقوم على الفور باستلام ستين ألف جنيّة. والآن بعد أنْ عرفت أذواق إنجلترا، أجدني احتاج إلى هذا المال " .[33]
إذن فمنذ ترجمته ألف ليلة وليلة كان عليه لكي يكون مشهوراً ويحصل على المال أنْ يجاري الأذواق بقصص وسرديات مثيرة وأحياناً منحطّة، ولا عبرةَ بما ستتركه سردياته من تشويه لصورة الآخر الذي يكتب هو عنه. ويمكننا أن نستخلصَ من اعترافات لين هنا البعد التكسّبي الصريح فيما يكتبه الكثير من الرحالة عن الشرق؛ سواء سرديات رِحلية كانت؛ أمْ تراجم منتخبة من التراث الشرقي.

والواقعُ فإنّ المعلومات التي حصل عليها لين مِن رحلاته ومن ترجمات ألف ليلة وليلة هي التي وفّرتْ لـ جان أوغست[34] الأخيلةَ المناسبة كي يُخرج لوحاته بتلك الشاكلة؛ على الرُغم مِن أنه لم يقم بأي رحلة إلى الأماكن التي استلهم منها أعماله. وكلاهما (الرحالة والرسامون) اتخذوا مِن ألف ليلة وليلة منبعاً لأخيلتهم وأسقطوها على المجتمعات العربية والإسلامية.

إنّ المظاهرَ التي تتعلّق بعالم النساء والتي تحدث عنها الرحالة تجدها في كلّ مجتمع، إلا أنّ المشكلةَ في الإعمام وطريقة النقل وإسباغ الأخيلة والإثارة على تلك الشريحة من المجتمع.

ويدعم هذه الرؤيةَ ما يذكره روبرت بونتون بأنّ " حسابات المسافرين الأوروبيين في أوائل القرن التاسع عشر إلى مِصر غيرُ قادرةٍ على التمييز (بين العوالم والغوازي) وعموم المجتمع، مما يشير إلى درجةِ الجهل الثقافي؛ فضلاً عن عدم إمكانيةِ وصول معظم الأجانب إلى الأجزاء الداخلية الخاصة مِن شرائح المجتمع "[35]، فهو يتحدّث عن كتابِ لين (مصر الحديثة)الذي انغمس في عالمٍ خاص؛ طلباً لرغباته هو، ولكن الصورة التي تركها توحي للقارئ بأنه بصدد الحديثِ عِن مجتمعٍ بكاملِه، " لذلك كان لأولئك الرّحّالة دورٌ كبير في إعطاء صورة غير واقعية عن الإنسان العربي، كما كان لهم دور كبير في زرع هذه الصّورة في المخيلة الأوربية .[36]"

لكن ذلك لا يقلّل من قيمةِ نتاجه الخطير في وصف المجتمع المصري آنذاك؛ ذلك الوصف الذي يتعرّض لأدق التفاصيل الاجتماعية والسياسية والنفسية، وكأنّه " يجعلنا نعيش في القاهرة حتى عام ١٨٤٧م والتماهي بتفاصيلها، تحت اسم منصور أفندي، ومسح لين البلاد بالعلماء، ونسخ ما يستطيع الوصول إليه في آلاف الصفحات، وبذل جهده في الوصول إلى مخطوطات المساجد وغيرها، ويعد كتابه أول كتاب بعد كتاب الحملة الفرنسية؛ يتحدث عن القاهرة منذ نشأتها وحتى عصر المؤلف.[37]". لذلك من الخطأ الظن أن تجاوزت الرحالة أتت عن عفوية أو جهلٍ؛ بل عن دِرايةِ ومعرفة. لكنْ من الإنصاف وعلى الرغم مِن المآخذ بحق المجتمعات المصرية نذهب إلى ما ذهب إليه مترجم كتاب (المصريون المحدثون) قائلاً " لم أرَ بعد كتاب المقريزى (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) ولا بعد كتاب الجبرتي (عجائب الآثار) من بتسجيل العادات المصرية والآداب الشعبية بدقة كالمستشرق لين ".[38]

الحديث عن الذات

ثمة سِمة غالبةٌ على كتابات الرحالة البريطانيين؛ سواءٌ الذين أنتجوا مذكرات أو الذين كتبوا نصوصا أدبية وقصصاً، وهذه السمةُ بقدر ما كانوا يحطّون بها مِن الآخر الشرقي الضعيف والمتخلف – بحسب وجهة نظرهم – فقد كانوا يضخّمون ذواتهم ويصوّرون أنفسَهم أبطالاً أسطوريين.

وغالبا يكون البطل في سرديات الرحالةِ الأساس في الرحلة، لا راوياً فيها فحسب، ويقتنص كلَّ الفرصِ ليتحدّث عن ذاته، فـ " الأنا الممقوتة في النبرةِ الكلاسيكية أمكن تكييفها لتتلاءمَ مع التمجيد الفيكتوري للفردانية. وأضحى الرحالُ هو الصليبي، والبطل، والجندي. وسرعان ما اتسعت شهرتُه وراحت تأخذ أبعاداً أسطورية مثلما حدث لـ لورنس Lawrence "[39].

أنَّ المُخرجاتِ المبكرةِ لطبيعةِ الرحلةِ التي يقوم بها الرحّالة تجري حتى قبل الشروع برحلته، والرحالةُ حينها مأخوذٌ بسِيَرِ مَن يظنهم إبطالاً هيمنوا على الشرق إبّان الحروب الصليبية. " وهو في هذا يستحضر حمولاتِ التاريخ؛ مُضيفاً إليها ظنه بأنه هو شخصياً بمثابة البطلَ الفاتحَ؛ جرياً على سِير الذين قرأ عنهم مِن زعماء الحروب الصليبية. فمثلاً في العصر الفكتوري أعاد رحالةُ بريطانيا إنتاج شخصية (تانكرد Tancred)(*[40]الصليبية متمثلةً برحالةٍ قاموا برحلاتهم قبلَ أنْ يشرعوا بها فعلا، وذلك بعد أنْ زوّدتهم قراءاتُهم المبكرة بكثير مِن الصفات التي كانت بمثابة رؤية للشرق.[41]"

ومِن الشعراءِ الذين كتبوا عن العرب والمسلمين في العصر الرومانسي روبرت ساوثي Robert Southey) ١٧٧٤-١٨٤٣)، وقد اعتمد في كتاباته على كتب الرحلات وكتب المستشرقين. كتب ساوثي قصيدةً عن هجرة الرسول ، اتهمه فيها بأنه هرب مِن قريش بسبب موت خديجة. كما كتب قصيدة بعنوان (لوزريق آخر ملوك القوط)؛ وصف فيها المسلمين بأبشع الأوصاف. ومن المعلوم أنّ لوذريق هذا كان أحد القوط الذين حاربوا المسلمين في الأندلس وارتكب الفضائع بحق بني جلدته أيضاً.[42]

ومِن الروائيين الذين كتبوا عن الإسلام بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤-١٨٨١)، في قصته (تانكرد- الحملة الصليبية الجديدة Tancard: or the New Crusade) " أنكر فيها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ودعا النصارى إلى إشعال حرب صليبية ضد العرب والمسلمين. والملاحظ أنّ كتب الرحلات والتاريخ هي التي شكّلتْ مَصدراً أساسياً للأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام؛ خلال العصر الحديث "[43]، الأمر الذي يعني أنّ الكتاباتِ الرحلية لم تكتف بالتأثير في متلقيها مباشرة؛ بما تسرده مِن أدبياتٍ وقصص؛ بل تتحّول إلى مصدر إلهامٍ لكتّاب كتبوا عن الإسلام والمجتمعات العربية على الخصوص.

لكن مع هذا بقى التنوعُ والاختلاف في رحلات الرحالة أمراً واقعاً، و" منها ما كان ذا حماس تبشيري أو حبّاً في المغامرة، أو بحثاً عن الرومانسية، والاستكشاف السياسي. أو وردت بوصفها تقاريرَ أثرية مثل اكتشافاتِ السير أوستن هنري لايارد ((1894 (5 – 1817 في مدينة نينوى العراقية " .[44]تختلط فيها الذاتية والميل الانثربولوجي الفج؛ الذي يعد شعوبَ الشرق عيناتٍ لآرائهم المتطرفة.

مؤثراتُ النزعة الانثروبولوجية

يمكن التدليلُ على تعدّدِ الأنماطِ الرّحلية بين الاستكشاف الآثاري والاستكشاف الانثروبولجي ثم الثقافي والسياسي فيما كتبه الكثير مِن الرحلة الإنكليز، وكلٌّ بحسب ثقافته والمؤثرات التي أسهمت في صنعه. لكنْ يجب التنبيه إلى أننا لا ننتظر أنْ تكون نزعة الانثربولوجية علمية خالصة؛ بقدر ما هي نزعةٌ مُشرَبة بدوافعٍ دينية أو سياسية؛ لكنها تُتخذ الانثروبولوجيا أخذاً انتقائياً؛ لتكون وسيلةً لإسباغِ النزعةِ العلمية على مواقف الرحالة وعلى كتاباتهم.

ومِن هؤلاء الذين تبدو عليهم هذه الصفةُ الرحالةُ لايارد[45]؛ ففي كتابه (نينوى وآثارها) يبدو عالماً انثروبولوجياً وعالم اجتماع؛ جاء ليثبتَ نظرياتِه وآراءه على المجتمعات التي مرّ بها في العراق وإيران وسوريا.

وحديث لايارد عن الأقوام والطوائف تنمّ عن نصوصٍ وصفيّه أشبه بملخصاتٍ تغوص في تركيبة المجتمعات والبيئات التي شاهدها ومكث فيها؛ لكنه أحيانا كان يصدر في حكمِه على المجتمعات التي عايشها عن مواقفَ مسبقةٍ تصوّر الآخر الشرقي المتخلّف – والذي كان مرتقياً حضاريا في ألازمانِ الغابرة – بنظرةٍ تصفه بالعاجز عن الحضارة والإنجاز المدني .[46]

ويندرج كتابُه الأخير (المغامراتُ الأولى في بلاد أشور وساسان وبابل) ضمن الأدبِ الرّحلي وفيه كمٌّ مِن المعرفة المتضمّنة خرائط عن المواقع الأماكن الآثارية، وسرداً وصفياً انثروبولوجيا للقبائل والعشائر ومجتمعات المدن التي خالطها، مع سعة يصف فيها الناس وطبائعهم؛ بأسلوب شيق.

كانت الرحلة بالنسبة لـ لايارد عملاً مقدّساً يمتدُّ إلى تواريخ تعود إلى العهد القديم. " لذلك امتزجت رغبتُه باكتشاف سحر الشّرق القديم وآثاره المرتبطة بتاريخ الدّيانتين اليهودية والمسيحية. وعلى الرغم من إطلاعه على العهد القديم فانه لم ينوِ أنْ يبرهنَ على صحة النصوص التاريخية التي تضمنها؛ كدأب كثير مِن الرحالة والمستكشفين "،[47] كما مرّ في حالة دويتي، فـ لايارد مِن هذه الناحية معتدلٌ إلى حد بعيد؛ قياساً برحالةٍ آخرين زاروا المنطقة.

يصف لايارد في كتابه – وبأسلوبِ المذكرات الشّخصية – تفاصيلَ تتعلّق برحلاتِه؛ لكنْ مقارنةً بما حصل عليه مِن كنوز آثارية (لا يُعدّ مِن أساليب البحث العلمي؛ إذ يتخلله انحيازٌ للأنا، وهو ممتزج بالحقائق تارةً وبالسطحية تارةً أخرى. ونستطيع القول " أنَّ الكتابَ بمثابة وثيقة تاريخية؛ تصف عادات القبائل العربية والفارسية والكردية التي واجهته بشكوكها ونواياها تجاه رحلته الاستكشافية "[48]. التي قضاها في نهب الآثار من مجتمعات كانت تعاني الفقر والتخلّف.

وبخصوص ما مرّ ذكره عن الأنتروبولوجيا – وهو علم كان آنذاك حديثُ الولادة؛ وبدايتُه كانت مشحونةً بالخلْط وعدم استواء المنهج – لكنه كان يدغدغ زهوَ الأوروبي بنفسِه، وتدخل في روعه بأنه ذروةُ التفوقِ بين أجناس البشر الأخرى، وكان يقيس مقدارَ تدني الشعوب بمقدار اسوِدادِ بشرتها، وطالما هي تندرج في أدنى مراتب ذلك المقياس، فإنها تشارك الحيوانات في الكثير مِن صفاتها التي كانت حرارة الشبق الجنسي واحدة منها ."[49]

وفي كلا الجهدين الاستشراقي والرِحلي تظهر الذاتَ الأوربيّة بوصفها ذاتاً متمدنة؛ فضلاً عن تفوّقها الانثربولوجي، في مقابل النظرة الدونية للشرق بايولوجياً وتاريخياً. وكتاباتُ كثير من الرحالةِ والمستشرقين بحسب ما يرى الدكتور حسن شحاته: " تزيّفُ ثقافةَ الآخر الشرقي وتحتقر لغته ووجوده، وتضعه خارج التاريخ. وقد لا تكون هذه حالةً عامة، لكنَّها تعبّر عن الاقتران بالمدّ الاستعماري. إذ جُعِلَ الشرقَ ميدانا أنثروبولوجيا مجرداً مِن قيمته التاريخية " .[50]

ومع أنّ ما ذهب إليه الدكتور حسن شحاته فيه إعمامٌ؛ لكنه ينطبق في الغالبِ على كتابات قسمٍ من الرحالة الأوربيين من ذوي الميول الانثروبولوجية حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ وهو عصر الانبهار بالكشوفاتِ العلمية التي جرى استخدامها لتعزز هيمنة الأوربي المستعمر. لكن بحلول القرن العشرين تطورت الدراسات الأنثروبولوجيا وتغيرت النظرةُ إلى الآخر الشرقي نسبياً، ومع ذلك لم تفلتْ الأنثروبولوجيا الكلاسيكية مِن عقلية الأوروبي المتميّز، الذي غالبا ما يجعل الشرقي في مصافي الدونية والتخلف. فمثلاً أوضحت الهوامش التي وضعها بيرتُن على (ألف ليلة وليلة) كيفية نشوء «الأنتروبولوجية في العصر الفيكتوري، وكيف عكست الاهتمامات بهذه المهنة التي كان بيرتُن نفسه يستخدم مصطلحاتها في هوامشَه على ألف ليلة وليلة.

كان بيرتُن عضواً في الجمعية الأنتروبولوجية الملكية، وعلى الرغم من أنّ علمَ الأنتروبولوجيا الحديث ساوى فيما بعد بين الأجناس وبين الثقافات، إلا أنَّ «أنتروبولوجيا» القرن التاسع عشر كانت بمثابةِ منهجِ تصنيف الأجناس بأسلوبٍ طَبَقي وفَوْقي، ومترابطةً مع الإمبريالية وتطبيقاتها. وكان بحّاثوها الأوروبيون طِوال هذه المرحلة يكرّسون جهودَهم ليصفوا ويحلّلوا لقرّاء أوروبيين المجتمعاتِ غير الأوروبية الواقعة تحت سيطرةِ الغرب ".[51]

وقد اعتبر الفيكتوريون مِن أصحاب هذه النظرية أنّ العرق الانكلو – سكسوني هو أكثر تقدماً مِن كل الفئاتِ الأخرى، وأنه ذروة الجنس البشري، جريا على نسق الأنتروبولوجي (جيمس كاولز بريتشارد James Cowles Prichard 1786– 1848)؛ وهو طبيب وعالم الأعراق البشرية

البريطاني؛ وله أبحاثه في التاريخ الفيزيائي البشري؛ وهو صاحب مصطلح خَرَف الشيخوخة"[52]. وهو من أوائل مَن ادّعوا أنَّهم بإمكانهم قياس تطوّر الأعراق عن طريق قياس الجمجمة؛ " فشكل الجمجمة وحجمها يدلان على مكانة هذا العرق. وقدَّم في كتابه (أبحاث في تاريخ الجنس البشري) نظرية الطبقات العرقية. إلا أنّ كتابَه الثاني (التاريخ الطبيعي للإنسان) (١٨٤٣) كان أكثر شعبية واعتمد فيه على رواياتِ الرحالة ممّا زاد مِن قيمة حديثهم العنصري عن الأجناس الأخرى "[53]، أي أنَّ كتاباتِ الرحالة التي يطغى عليها جانب المتعة والمغامرة والاستكشاف ممكن أن تتحول إلى مرجع للأنتروبولوجيا المتطرفة؛ وهذا جانب خطير فيها.

يقول بيرتُن محاولا تبرير تصوراته: " إنَّ ما مرَّ بي من أحداث، وتعاملي الطويل مع العرب وغيرهم مِن المحمديين، أعطاني بعض الميزات عن الدارس العادي؛ مهما كان متعمّقاً في دراسته. وإنَّ من يضم ما كتبه (لين) إلى ما كتبتُه أنا سيعرف الكثير عن مسلمي الشرق؛ بل أكثر مما يعرف أوروبيون أمضوا نصف حياتهم في بلاد الشرق "[54]. وهذه المعرفة ذات الإطار الانثروبولوجي يكشف عنها تأثّر الرحالة بيرتُن بأفكار بريتشارد هذا، فهما يحملان النزعة العنصرية نفسها، وكان بيرتن ما ينفك يصطحب كتابه (التاريخ الطبيعي للإنسان)، لذلك تبنّى فكرة أنَّ الساميين أكثر تقدماً مِن الزنوج الذين هم في نظره أدنى أنواع الجنس البشري " .[55]

والواقع فأن (بيرتُن) كان يتحدّث عن الإنسانِ الإفريقي والعربي، والحيوان بلهجة واحدة. وهذا الإنسانُ يختلف عن الإنسان الأبيض المتمدن بنوعِ ردة فعله غير العقلانية حيال متغيرات البيئة من حوله . " وقد رأى الأوروبي أنَّ ردة الفعل هذه جديرة لغرابتها بأن تكون موضع دراسة فنصَّب نفسه لدراسة هذا « الآخر » الشرقي، وراح يسجل كلّ الصفات الجسدية والعقلية لهذا الكائن غير الأوروبي الشبيه بالحيوان "[56]. واقرب طريق إلى تمرير هذا الوصف اتهام الشرقي بالشبقية والهوس الجنسي. وقد عبّر عن عدم رضاه عن ترجمة ١٨٨٦ لكتاب (الروض العاطر ونزهة الخاطر) للنفزاوي، وهو كتاب يبحث في الأمور الجنسية وأمراضها، وقام بنشره تحت عنوان The Perfumed Garden of Sensual Delightوحاول أنْ يضيف عليه هوامش كثيرة، وصفها بأنها ستكون سجلاً لحكمة الشرق، لولا أنْ قامت زوجته ايزابيل بحرقها[57]. وكلُّ هذا دون أنْ يسألَ نفسَه ما دوافع ترجمة هذا الكتاب دوناً عن كثيرٍ من كتب أخرى في غير هكذا موضوعات؟؛ لولا ميولُه ونوازعه الشخصية.

والواقع فإنّ ما قام به بيرتُن لم يكن بمستوى واحد. ومِن الإنصاف أنْ نذكر أنه " أمدّ المكتبةَ التاريخية العربية بمعلوماتٍ عن الحياة الاجتماعية للمصريين والحجازيين، وملاحظاته تحمل قدراً مِن الدقة أحياناً؛ حيالَ كثير مِن القضايا التي ناقشها أو الأحداث التي رآها.[58]"

أمّا دويتيDoughty [59] فيمثل ذروةَ احتقار الشرق عموماً والعرب على الخصوص، والتعبئة المشوبة بالغل. وهو " رحالة يعلن بُغضاً للإسلام والشعوب التي رحل إليها، لاسيما فيما كتبه عنها عام ١٨٨٨ في كتاب (رحلات في الصحراء العربية Travels in Arabia Deserta)، ذاكراً فيه أنّ الإسلامَ دينُ الموتِ، وينبغي الإجهازُ عليه "[60]. وكان يقول هذا في عصر كانت فيه بريطانيا مُمعنةٌ في أذى الشعوب؛ وهي في أوجّ علوّها الاستعماري. وبهذا تنقلبُ الصورةُ ليظهرَ الضحية مُداناً، والجاني لا تقع أفعاله في محط الإدانة والمساءلة لمجرَّد كونه متفوق ومتسلحاً بعناصر القوة.

المسوغات الدينية لمواقف الرحالة

في معرض حديثه عن المجتمعات العربية يختصر الرحالة دويتي صورةَ العربيّ بالتخلف والانحطاط العمراني في ما آلت إليه أحواله في العصور المتأخرة؛ وهذا قد يكون واقعاً في زمن دويتي؛ لكنه لا يُسوغ مصادرةَ كينونة الآخر العربي "، والمتلقّي حين يطّلع على هذا الكتاب بمجلديه يجده في الغالب يشير إلى البلاد العربية؛ لاسيما الجزيرة العربية، لكنه حين يضطر إلى الحديث عن سوريا (وفلسطين) فيذكرها كمَن يتحدّث عن أرضٍ مسيحيةٍ؛ بوصفها مهد المسيحية وبقية الإرث البيزنطي "[61]. مع العلم بأنّ كتابه لم يلق أول الأمر رواجاً وقبولاً مِن القراء الأوربيين، ولا حتى مِن المثقفين في بريطانيا آنذاك لكنه وببطء " صار مِن المراجع الأساسية في أدب الرحلات، وتتلخّص ميزته في كونه يعبّرُ عن توجهات دويتي الرحليّة إلى الصحارى العربية، وقد كتبه بأسلوبٍ مُتقن شائق، وهو في الغالبِ يستنِد مِن حيث الروح والتوصيف الجغرافية والتاريخي إلى الكتابِ المقدس؛ في نسخة الملك جيمس" .[62]

لذلك نقول: من العسير معرفة طبيعة ومِيزات كتاب دويتي إلا بمَعرفة دوافعه الدينيّة التي دفعته إلى الرحيل إلى الجزيرة العربية؛ فدافعه الديني هو الأساسُ لشروعه برحلته تلك، والذي يتمثّل برغبتُه في تفسير رموز الكتابات والنقوش الموجودة في خرائب (مدائن صالح)؛ لظنه بأنّ لها معلومات توراتية؛ وقد أشار في مقدمةِ الطبعة الثانية من الكتاب إلى أنّ عنايته الشديدة بالبحث التوراتي هي التي حمله على أنْ يغامرَ بنفسِه ويذهب إلى تلك الخرائب ".[63]

وحين يتحدّث دويتي عن بدو الصحراء العربية يقيّمهم على وفق أخيلته وقناعاته الدينية، ونرى تشرّبه بالإرث التوراتي الذي يسقطه على واقعهم. يقول دويتي " في حياة هؤلاء الإعراب نسمعَ صدى اللغاتِ العابرة، ونلمَح في أساليبَ حياةٍ قديمةٍ تنبعث مِن جديد؛ وكأننا عدنا إلى أيام القبائل العبرانية، وبذا نصبح أكثرَ قدرةٍ على قراءةِ العهدِ القديم بفهم تزودنا به تلك التجربة. أمّا إذا كانت معتقدات أهل هذه التجربة أعرابُ اليوم، فالأمر يختلف عمَّا ينشده، وإذا كان لها مفاهيم مغايرة للمشاهدة التوراتية فعندئذ يتحتّمُ إنكار هذه التجربة ورفضها. ويصل رفضُ دويتي إلى حدّ التعصبِ؛ الذي يذكرنا بتعصبِ اللهجة الصليبيةِ " .[64]

ونزعةُ دويتي الاستشراقية لا تكتفي بالكشف عن الشرق؛ بل تصنّع صورةً هذا الشرق بحسب ما يوافق عقيدته؛ لاسيما في مفارقة الآخر وتصنيفه كياناً مغايراً، والذي عزز جنوح دويتي في هذا إيمانُه بعقيدة التفوّق الديني التي ترى أنها تنشر التنوير في الآخرين؛ ولكن على وفق رؤاها ومطاحها وحمولاتها.

وقد شرح نورمان دانييل Norman Daniel في كتابه (أوربا والإمبراطورية) اشتغال نزعة الإيمان بالتفوق الديني سواء لدى الرحالة والمستشرقين، متحرّياً عن جذور المنافسة الأوروبية للشرق وأسبابها، والتي تغلّفت بأطر دينية، ولكن أسبابها الحقيقية هي القوة والهيمنة التي تحصّلت للأوربي في القرون المتأخرة؛ في مقابل تخلّف الشرق. يقول نورمان دانييل:

" جاء الشعور بالتفوق نتيجة التقدم التكنولوجي والإداري؛ ولكنه تحوّل إلى شعور بالتفوق المسيحي. وبذلك لم يعد يُعزى سبب التفوق إلى التكنولوجيا الجديدة بل إلى الأخلاقيات القديمة. وشعور دويتي بالتفوق الديني موجّه إلى الإسلام. وكان يغيظه أنّ الجزيرة العربية خالية من المظاهر التوراتية وتقاليدها، بل مجتمعها له تراثٌ مختلفٌ تماماً عن تراث أوروبا المسيحية ".[65]

وواضح أنّ دويتي يجهل التاريخ جهلاً مريعاً، وأكثر مِن هذا كان يجهل جغرافية التوراة نفسِها؛ خلا نصوص معبأت بالمغالطات، ولا صلةَ لها بالواقعة التاريخية. لكنه يحاول أن يتلبّس هو شخصياً بلبوس المخلص Savior والبطل الديني؛ عبر أوهام غاية في التعصب.

حاول دويتي من خلال هذه النزعة " تقمّص دورَ القديس الذي يجوب الصحراء العربية بالرداء التوراتي؛ لذلك تجده يسرد تفاصيلَ رحلته بأسلوبٍ إنجيلي؛ ويعطي لما يرويه مِسحةً بطولياً ذات قداسة، انه متماهٍ بنزعة استشراقية معبأءة بحمولات دينية "[66] ممتزجة بشعور التعالي، وهذا الاعتدادُ وصل حتى إلى لغته التي يتحدث بها فكان " يحاول صقل لغته بالأسلوب الذي يتماشى

مع لغة التوراة وتزويدها مِن جديد بالإشراق الذي كان يتصوّر أنها فقدته ... إلا أنّ هذه التطرف والتكلف أديا به إلى استعمال مفرداتٍ ميتة؛ جعلت نصوصه ترهق القارىء الأوربي نفسه "[67]. وهذا ما دعا المستشرقُ البريطاني (آرثر آربري A. J. Arberr) لدى مراجعة السرد الرحلي لـ دويتي – بوصفه أدباً يُعرض أمام المجتمع البريطاني– إلى القول بانّ قسماً مِن هذا الأدب أخلّ بالذائقة الأدبية بسبب لغته المقعّرة التي حاول إلباسها النسقَ الأسلوبي للتوراة يقول:

" من السخرية أنّ لغة دويتي الإنكليزية القديمة بدت وكأنها لغةٌ أجنبية؛ على الرغم من أنَّ بعضهم اعتبر هذه اللغة تعبّر عن شعبٍ قديم ... وبالمحصلةِ فمفرداتُه الثقيلة أدّت إلى خلقِ فجوةٍ بين قرّائه الإنكليز وبين الشعبِ الذي يكتب عنه (أي الشرقيين)؛ مما جعل هذا الشعبَ يُنفى إلى عالم مِن القِدم الكاذب، ولا يُنظر إليه كشعبٍ معاصر له تطلعاته كأي شعب آخر[68]" . وهذا عينُ ما قام عليه كتاب ادوارد سعيد من حيث وصفه الاستشراق بأنه تصنيع فيلولوجي للشرق وانه " استجابة للثقافة التي أنتجته أكثر مما هو استجابةٌ لموضوعه المزعوم " .[69]

الدوافع السياسية للرحالة

كثيرٌ مِن الرحالة البريطانين كان لهم دوافع سياسية أو مرتبطة بالسياسة، وكانت نتاجاتهم السردية تعبّر عن أغراضِهم، وتصف رحلاتِهم، سواء مباشرةً، أو لا تفصح عن أهدافهم تماماً. فضلاً عن كون بعضهم متعدد الأهداف، ويأتي الغرض السياسي مِن ضمن أهداف أخرى؛ بما فيها الأغراض الشخصية. لكن منهم مَن تكثّفت رحلاتهم لأغراض سياسية بحتة. حتى وإنْ أتت نتاجاتهم السردية على شكل قصص أو مذكرات أو وصف رحْلي. والواقع أن النتاجَ السردي ذو الطابع الأدبي عنصرُ ترويج شديد الأثر؛ نظراً لما للأدب والتشويق مِن قابلية على الانتشار؛ لكنه مع ذلك يُعدّ وثائقَ ليست أقل خطورة مِن التقارير المباشرة.

ومن الرحَّالةِ الذي كان لسردهم أثرٌ في الرحلات ذات الطابع السياسي ثوماس لورانس T.E. Lawrence. وكان للمحتوى السردي القصصي في مذكراته بعدٌ استشراقيّ؛ اعتمد فيه على المحايثة والمعايشة، وخلط سردياته بأخبارٍ وأخيلةٍ تعتمد على الروايةِ أحاديةِ الجانب، لأنَّ الآخر الشرقي بالنسبة له ولكثير من الرحالة هو الآخر الأخرس، أو الذي يجب إخراسه.

والواقع فإنّ البعدَ الرومانسي والتشويق ومن ثَمَّ أسلوبُ المغامرة جعلت مِن مذكراته ورسائله أكثر تشويقاً وقبولاً، والذي عزَّز مِن تأثيرها لغتها الحكائية. وتمثّلت فرادتُها في مساحة حرية الطرح والتي لا يملك أيُّ قارئ أوربي معارضتها أو دحضها؛ لكونه غير مطلعٍ على الأحداث. وبذلك تكون الغرابةُ أحد أركان سرديات لورنس فضلاً عن عنصر التشويق.

لم يشهد لورانس مدّةً طويلةً مِن العصر الفكتوري؛ إلا على مدى الشق الأول مِن شبابه، لكنه عبّر بوضوح عن ذلك العصر والتطلعات السياسية والثقافة لبلاده. فثقافته تنتمي إلى ذلك العصر؛ مع كراهية للسلوك البرجوازي لمجتمع إنكلترا، لكنه مع ذلك ظلَّ متفانياً في خدمة بلاده، في مقابل الأذى والكذب الذي أبداه عن المجتمعات العربية التي وثقت فيه.

ولد ثوماس لورانس في مقاطعة ويلز عام(١٨٨٨–١٩٣٥)[70]. وهو كاشف آثار ومجند في الجيش البريطاني ودبلوماسي وكاتب وصفي. " عُرف بدوره في التنسيق والاتصال أيام حملة بريطانيا على سيناء وفلسطين وجزيرة العرب ضد الإمبراطورية العثمانية. وهناك إرهاصاتٌ خطيرة في سيرته انعكست على مجمل كتابته، بل ربما مثّلت هروباً من واقعه وعصره. ولد مِن زواج غير شرعي في ويلز، في أغسطس ١٨٨٨ لـ توماس تشابمان وهو نبيل ايرلندي، وأمه سارة مربية اسكتلندية "،[71]ترك أبوه زوجتَه وعاش معها واستولدها خمسة ذكور[72]. وكان في شبابِه " يشعر بالعزلة؛ نظراً لكونه مولوداً غير شرعي؛ فمن الصعب أنْ يأملَ في الاندماج الاجتماعي أو أن يحقق نجاحاً كالذي يجده المولودون الشرعيون.[73] ومنذ طفولته كان لورانس مغرماً بأخبار القرون الوسطى وكتب عام ١٩٢٧ يقول: إن كتاباته عن العصور الوسطى طريقٌ لتحقيق الحلم بالفرار مِن إنجلترا البرجوازية .[74]"

في عام ١٩١٠ واتته الفرصةُ ليصبحَ مستكشفَ آثارٍ في الشرق الأوسط، بتكليفٍ من المتحف البريطاني إذ "وصل بيروت وراح يتعلم العربية، والشروع في التنقيب الآثاري؛ بتكليف من المتحف البريطاني، إلى سنة ١٩١٤[75] . ثم " رحل بعدها إلى مصر وصار من المستكشفين الآثاريين، بسبب معرفته باللغة العربية، وقدرته على التغلغل في طبقات المجتمع. ولباقته وأسلوبه الملون في التصدي للمشكلات؛ جعلاه شخصية شعبية " .[76]

والحال فـ لورنس لا ينطبق عليه عالم آثار نظراً لقصوره في التخصص في هذا العلم، والأولى أنْ يسمّى مستكشف آثار. أيْ أنّ عمَله تنفيذي في الغالب. ثم هو مغامرٌ سياسي كلفته الحكومة البريطانية بمهامه مِن بعد ما رأت فيه الميل إلى المغامرة؛ لاسيما في الجزيرة العربية، فكان كاتب تقارير مِن الطراز الأول يستكشف أخبار وأحوال القبائل البدوية أو المجتمعات في الجزيرة العربية. لكنه لم يكن في سردياته الرحلية متحاملاً؛ مثل كثيرٍ مِن الرحّالة، وتكاد كتاباتُه تخلوا من إعلانات مباشرة بالدونية تجاه الآخر، إلا أنها بالعموم لا تخلو مِن هذا الطابع.

كان لورنس يتعامل مع العرب على أنه البطل المخلّص الذي جاء ليخلصهم مِن العثمانيين؛ كما يدَّعي، ولا يخفي كون دوافعه بالدرجة الأساس خدمة لبلده، يقول:

" لقد انتدبتُ للعيش مع العرب كغريب عاجز عن مجاراتهم في التفكير، مجبر على توجيههم في الاتجاه الذي يتفق مع مصالح بريطانيا. وإذا كنت عجزتُ عن تفحّص شخصيتهم، فقد نجحت في إخفاء شخصيتي واستطعت أنْ أندمجَ في حياتهم دون احتجاج ولا انتقاد "[77]. ف لورنس مضطربٌ في خطابه، إذ بينما يعتدُّ بنجاحه يعود ليعترفَ بكونه عاجزاً عن تفحّص شخصيتهم. وهو " لا يتورّع عن وصف الذين وثقوا فيه ومنحوه فرصة العيش بينهم بالدونية؛ لكنه يبدي أحيانا ملاحظاتِ إعجاب بوصفه سيداً يمتدح خادمه. فالصورةُ التقليدية عن العربي حاضرةٌ في ذهنه بوصفه الشرقي والشهواني .. وبينما تكون هذه الشهوانية موضعَ تعاطفِ (لورنس) حين يذكرها في معرض حديثه عن العرب (لمآربه فيهم)، لكنها تصبح مثيرة لفَزعه؛ إذا أشار إليها وهو يذكر الأتراك الذين كان يكرههم".[78]

وغالباً ما ادّعى لورنس بأنه مهندس الثورة العربية، مع أنَّ تلك الثورة ولدت قبل وجوده. وهو مَن حاول أنْ ينزعَ عنها طابع الثورة المستقلة ويحرف مَسارها ويحولها إلى زخم سياسي عسكري يصبُّ في مصلحة بريطانيا، حتى تكشّف الحالُ لاحقاً عن كون الخديعة الكبرى لم تصدر عن للورنس وحده؛ بل كانت عهوداً منكوثة صدرت عن السياسات الأوربية بالعموم؛ لاسيما بريطانيا.

فالإنكليز " نقضوا عهدَهم للعرب وتنكروا لمبادىء حق الشعوب في تقرير مصيرها، فحجبوها عن أعين الرأي العام تحت حجة الانتداب. أمَّا مجهود جيش الثورة العربية فقد شوّهوه بالدعايات التي افتعلوها، وجعلوا من لورنس المسيِّر لتلك الثورة؛ وبأنه هو الذي قادها. وهكذا أدخلوا في الأذهان أنَّ الثورةَ لم تكن سوى تجمّعاتِ بدو متوحّشين، لا تفكير لهم سوى الذهب الذي كان ينثره عليهم لورنس. ونلاحظ هذا في مجمل ما كتبه لورنس متجنباً التحدث قدر الامكان عن جيش الثورة النظامي الذي كان في الواقع عماد الثورة، " .[79]

ومع اعترفِ لورنس في نصوص محذوفة مِن كتابه أعمدة الحكمة السبعة: بأنّ " الثورة كانت حرباً عربية خالصة، خاض غمارَها العرب. وهذا النجاح لم يعتمد إلا على قليل مِن مساعدة البريطانيين "[80]. ويقول " إنَّ المتاعبَ التي عانيتُ منها ما كانت لتعني شيئاً، نظراً لعدم اكتراثي بما هو جسدي، وإنما هناك الخداعُ المرهق الذي اضطرني إلى أنْ أحمل نفسي وزره وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر، بعد أنْ لبست لها لباساً لا عهدَ لي بمثله من قبل، مع يقيني بأن الوعود التي أطلقناها للعرب لن تكون لها أية قيمة عمَلية فيما بعد".[81]

وهكذا نجد عرب (لورنس) هم الغرباء، والتعامل معهم تحفّهُ المخاطر، وعليه فهو بين أمرين: إمّا أنْ يصبحَ أسيرَ عنادِهم، أو يخضعهم بالقوة، غير أنَّ الإجراءَ العنيف قد يؤدي بصاحبه إلى السقوط في الفراغ المخيف؛ فلا هويته بقيت على وضوحها، ولا هم غيروه، وإذا به انحدر إلى

مَصاف الضياع " .[82]وهذا يعني أنَّ الرحالة مهما حاول أنْ يُخضِعَ العينة التي يكتب عنها لشخصيته فسرعان ما كان يجد نفسه في ضياع هويته وشخصيته هو. والتظاهر بكونه شرقياً سبّب له تمزقاً نفسياً لا يخفى، لذلك يعترف بمرارةٍ قائلاً " بُعثت إلى العرب كغريب، ولم أقدر على أنْ أفكرَ مثلهم أو أتبنى معتقداتهم، بيد أني وإن كنت أخفقت في اصطناع شخصيتهم فقد استطعتُ أنْ أخفي شخصيتي .... إن قيامي خلال هذه السنين بارتداء لباس العرب وتقليد نمط تفكيرهم أبعدني عن ذاتي الإنكليزية؛ فالأمر كله لم يخرج عن كونه تكلّف يكاد يضع المرء على حافة الجنون وهو ينظر إلى الأشياء من خلال ثقافتين متباينتين في وقت واحد ".[83]

إننا إذن نتعامل مع رحالةٍ تكلّف بعملٍ سياسي داخلته الكثير من الأحداث والأحوال؛ فهو خارج نطاق القصص التي تخاطب المتلقي العادي مباشرة، لكن النهاية هي نفسها التي ينتهي إليها الرحالة من ذوي الميول الأدبية، وهذا لا ينفي أنَّ مُذكراته تنبثق هي الأخرى مِن سرد أدبي يشوبه خيالٌ وتشويق وأسلوب قصصي ممتزجٌ بروح المغامرة التي لا تخلو من كذب أو مبالغات مع تماهي في دوافع دينية عميقة. " والذي يعزِّز ذلك قطعية مقرراته فيما كتبه لاحقا تحت مسمى (أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom)، فالعنوان يدلل على التعالي الذي يضمره أو يعلنه لورنس: هي أعمدة حكمة مقدسة؛ مأخوذة مِن سفر الأمثالProverbs في العهد القديم؛ بحسب نسخة الملك جميس؛ كما يذكر لورنس نفسه في رسائله.[84]

النموذج الايجابي للجانب الرحلي

على الرغم العديد من الأسئلة التي ساقها البحث عن عينات من الرحالة البريطانيين فمن الإنصاف القول بأنْ ليس جميع الرحالة تتمثل فيهم هذه الصفات التي سقناها؛ إذ هناك رحالة أكثر موضوعية وأوسع أفقاً وأكثر إنسانية واحتراما للمجتمعات التي رحلوا إليها.

ومِن الموضوعية أنْ نستعرض سريعاً صنفاً من الرحالة لم يكتف بموضوعيته؛ بل صدرت عنهم مواقف رافضة لشطط كثير من الرحالة البريطانيين في تلك الأزمان. ومِن أولئك الشاعر والرحالة ويلفريد بلُنْت. [85] (Wilfred S. Blun (1840- 1922

كان بلُنْت من المتعاطفين مع تطلعات المسلمين ومعارضاً للسياسة البريطانية في السودان والهند، ومن الداعمين الحزب القومي في مصر، له كتاب السوناتات والأغاني؛ وهو من أفضل شعر الحب .[86]

لم يكتف بلُنْت بموقفه الناقدة للرحالة الذين عاصرهم أو سبقوه؛ " بل راح ينتقد سلوكَ حكومتِه تجاه الشرق. وما قدمه مِن ملاحظات ونصائح لحكومتِه لاقت رفضاً؛ لكنها ما لبثت أنْ تبيّنت في رؤية

بُلنت كانت صواباً ومواقف صحيحة، تتعارض مع الموقف النفعي للحكومة البريطانية، مع أنه في الوقت نفسه لم يكن يتخلّى عن دعم مصالح بلده.

يقول بُلنت " إن السياسيين البريطانيين المشبوهين يسلكون سياسات منكرة مِن لدن أعدائهم. ومن المرجّح أن يكون حجم المشكلة يتمثّل في النظر إلى مستقبل الإسلام بوضعه في مكان خارج نطاق السياسة العمَلية، وهذه العبارة يستخدمها الكثيرون في السلطة؛ لكنهم يتهربون من مسؤولية القرارات الحاسمة. واعلم أن اقتراحي سيكون مشكوكاً؛ لكنني أنذر بأنَّ هناك تغييرات وشيكة، تشبه تلك التي مرَّ بها المسيحيون قبل أربعمئة عام، لذلك هناك حاجة ملحة لبريطانية لتدرك ذلك، إذا كانت تنوي الاحتفاظ بمنزلتها في آسيا ".[87]

إذن لم يكن معيار بُلنت فوقياً ومصلحياً، بل هو يدرك تاريخ المجتمعات العربية أو الإسلامية مهما بدت أمامه في حالة تخلّف، لكنه تعامل معها بإنصاف؛ مع انه بقي محباً لبلده إلا انه يترفّع عن الإساءة للآخرين. وقد أدى تعاطفُ بُلنت مع المجتمعات الشرقية بعامة إلى التعاطف مع القضايا العربية ضد الاستعمار الأوروبي " وكان أكثر شهامة مِن لورنس حيال العرب، إذ كان يرى أنهم أنداداً جديرون بالاحترام وينحدرون مِن سلالة عريقة وأنهم نبلاء الصحراء".[88]

وعلى عكس ما كان يراه لونس وحتى لين كان بلنت يقول: " حين نشاهد أولئك العرب وهم بين خيولهم وإبلهم، نلمس جمال حياتهم النبيلة، مقارنة بقذارة المستعمرين ".[89]

كتب بلنت بأسلوبٍ سردي ولغة أدبية راقية عن حياة الشعوب العربية والشرقية التي عايشها، وهو يمتلك حساً بلاغياً وأسلوباً سهلاً؛ ينمُّ عن الوضوح والصفاء؛ فضلاً عن التشويق وتدقيق المعلومات التي يبديها، على الرغم مِن مأساويتها، و" كان كتابه أسرار الاحتلال الإنكليزي لمِصر Secret History of the English Occupation of Egypt يشبه كتابه الآخر أفكارٌ عن الهند Ideas about India .

وكتابُ الأسرار هذا ذو " أثر عظيم في رسم صورة مؤلمة لحياة الشرق الواقع آنذاك تحت طائلة الفقر والتخلف والاحتلال، وفي الكتاب تفصيلات مروّعة عن حجم الاعتداء الذي وقع على الشعب المصري تحت نير الاحتلال البريطاني. وهذا كله مسكوتٌ عنه في كتابات الرحالة الآخرين؛ الذين إمّا كانوا مغرمين بشرقٍ خيالي ساحر يلهب نزواتهم، أو بشرق متخلّف يُضخّمون تخلّفه ليسوّغوا ما يفعلونه به من أفاعيل ".[90]

وبذلك يكون ثقل الأدب الرحلي أكثر أهمية وخطورة وتوسع من الاستشراق الأكاديمي الذي غالبا ما كان محصوراً في نطاق المتخصصين، أو ذا صلة بمؤسسات علمية، صحيح أن الاستشراق الأكاديمي أكثر تنظيما وتبويبا إلا أنّ قضية الأثر تؤخذ من مدى الانتشار والتأثير. لذلك كانت أغلب نماذج إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق مأخوذة من أدبيات الرحالة الأوربيين لاسيما في القرن التاسع عشر.

وبهذا يكون السردُ الأدبي المتمثّل بأدب الرحلات نسقاً موازيا لـ فيلولوجيا الاستشراق؛ بل أشد أثراً وحضوراً من الاستشراق نفسه في التأثير على مخيلة القراء وآرائهم ومواقفهم من الشرق.

الهوامش

---

[1] المعجم الفلسفي. يوسف وهبة. ص ٦٤٣. دار قباء. القاهرة.ط٢. ٢٠٠٧.

[2] المعجم الفلسفي. جميل صليبا. ج٢٢. ص. ٤٦٣. دار الكتاب اللبناني.ط١. ١٩٨٢.

[3] علم الشرق وتاريخ العمران ميكائيل انجلو. جويدي. ص هـ: المطبعة السلفية. القاهرة. ط١. ١٣٤٩ هـ.

[4] النساء في لوحات المستشرقين. لين ثرنتون. ترجمة. ص ١١-١٢. مكتبة الفكر الجديد. دمشق. ط١. ٢٠٠٧.

[5] *العصر الفكتوري عصر الملكة فكتوريا. بين سنة ١٨٣٠ و١٩٠٠ وهو عصر الصرامة في الشخصية ، وعصر الجمود والبرود في الأدب. ويُعزى هذا الجمود إلى شيئين؛ أولهما: الروح المادي الذي انتشر بين الإنكليز بتدفق الثروة الاستعمارية. وفي هذا العصر ازداد استعمال الآلات وتطورت الصناعة، وأَثْرَتْ بريطانيا إثراءً فاحشاً، وهذا ما بعثت فيها الروح المادي. أمّا العامل الثاني فهو النهضةُ الدينية وتتمثل بالحركة الطهرية «بيوريتانزم» التي تدعو إلى التقشف وكراهة الفنون والابتعاد عن الملاهي " ينظر: الأدب الإنجليزي الحديث. سلامة موسى. ص١٢. مكتبة هنداوية. القاهرة. ط٢. ٢٠١١.

[6] صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي. دراسة تاريخية. عدنان محمد عبد عزيز. ج١.ص ٦٦٧. دار اشبيليا. الرياض. ط١. ١٩٩٨.

[7] Women and Colonization: Anthropological Perspectives, Mona Etienne and Eleanor Leacock. (New York, 1980) p. 175.

[8] أساطير أوربا عن الشرق. رنا قباني. دار طلاس. دمشق. ١٩٩٣. ط١. ص ١٩-٢٠.

[9] م.ن.

[10] روايات غربية عن رحلاتٍ في شبه الجزيرة العربية. عبد العزيز عبد الغني. . ص٢١. ج٢.دار الساقي. بيروت. ٢٠١٣. ص٢١.

[11] تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. حسين يوسف حسين. مجلة كلية التربية. جامعة واسط. عدد: ٣٧. ٢٠١٩.

[12] الاستشراق. المفاهيم الغربية للشرق. ادوارد سعيد. ترجمة محمد عناني. ص ٧٣. دار رؤية للنشر. بيروت.ط١. ٢٠٠٦.

[13] أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. ٨٧-٨٨.

[14] تمثلات الشرق في أدب الرحلات الفرنسية. ليلى الجباري. مجلة العلوم الإنسانية. المجلد ١. ص ٤ -٤١. ٢٠١٧. بيروت. عن: تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين.م.ن.

[15] أساطير أوربا عن الشرق.138 .

[16] الاستشراق. ادوارد سعيد. م.ن. ص ١١٣.

[17] ولد كينكلك في مدينة تانتون ١٨٠٩ – ١٨٩١، بدأ حياته الدراسية في كامبردج، وفي سنة ١٨٣٢ التحق بمعهد الحقوق وأخذ إجازته القانونية. قام برحلته إلى المشرق العربي في العام ١٨٣٣ – ١٨٣٤ وكتب كتابه ايوثن، سَجّل فيه الانطباعات التي تركتها في نفسه عادات أهل البلاد التي زارها، وصادف عندما نُشره رواجاً لم يصادفه كتاب، باستثناء كتاب «سينا وفلسطين» للقس ستانلي. مع أنه كان نكرة بين الرحالة البريطانيين. ينظر: رحلة إلى المشرق. كينلنك. ترجمة. محمود العابدي. ص ٩-١٠. دار ورود. دمشق. ٢٠٠٥.

[18] الاستشراق. م.ن ٣٠٨.

[19]: م.ن ٣٠٨ -٣٠٩.

[20] رحلة إلى الشرق. أ. و. كينغلك. ترجمة محمود العبادي. ص١٠٥. دار ورد. دمشق. ط١. ٢٠٠٥.

[21] م.ن. ٣٠١٠-٣١١.

[22] أنظر: تصوّرُ الشرقِ في كتاباتِ الرحّالة البريطانيين. م.ن. نقلا عن:

Heart Beguiling Araby: The English Romance with Arabia. Kathryn Tidrick. Tauris Parke Paperbacks. 2009.

[23] A month at Constantinople. Albert Smeth. Boston: Bradbury & Guild. Washington street. 1852. p 13.

[24] إدوارد لينE.W. Lane " رحالة بريطاني (١٨٠١-١٨٧٦) أظهر موهبة في الرياضيات والنقش، لكنه ترك هذه الفنون وراح يدرس التواريخ القديمة. رحل إلى مصر وتتبع فيها حوض النيل، وقدم وصفاً لمصر، وشرع بزيارة أخرى لمصر في ١٨٣٣-١٨٣٥، واستقر في القاهرة. كتب عادات المصريون المحدثين Manners and Customs of the Modern Egyptiansعام ١٨٣٦ واحتلّ به مكانة رفيعة. ثم قام بتأليف معجم عربي إنكليزي– استند فيه على معجم (تاج العروس). ولاحقاً قدم لين ترجمة لليالي العربية، ويرى البعض أنها أفضل مِن ترجمة غالان .ومع ذلك تعرضت ترجمته لانتقادات مِن آخرين مثل بيرتُن." ينظر: موسوعة المستشرقين. عبد بدوي. ص ٥٢٣. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٩٣.

[25] تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. حسين يوسف حسين. مجلة كلية التربية. جامعة واسط. عدد: ٣٧. ٢٠١٩.

[26] The One Thousand Nights And A Night. RICHARD F. BURTON Vol. p.8. The Dunyazad Digital Library. First published. London. 1885-1888.

[27] An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, Edward William Lane, Vol. II; (London, Charles Knight & Co., 1836), p. 271.

[28] Islam Obscured The Rhetoric of Anthropological Representation. Daniel Martin p. 139. Newgen Imaging Systems Ltd., Chennai, India. First edition: January 2005

[29] أساطير أوربا عن الشرق. م ن. 147

[30] الاستشراق. المفاهيم الغربية للشرق. ادوارد سعيد. ص ١١٠. ترجمة. محمد عناني. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط٦. ٢٠٠٦.

[31] أساطير أوربا عن الشرق.م.ن. ٨٨.

[32] م.ن. 88

[33] The Life of Captain. Sir Richard Burto. (London, 1893,2 vols) vol. 11, p. 442..

[34] رسامفرنسي. تأثر بالتقاليد الفنية الماضية، تُعد لوحاته الخاصة أعظم إرثه. 1867 - 1780 جان أوغست)) جعلت منه التشويهات التعبيرية في الشكل والفضاء رائداً للفن الحديث، فأثّر على بيكاسو وغيره من الحداثيين. واستلهم الكثير من لوحاته من ألف ليلة وليلة، ومن كتابات الرحالة إلى الشرق؛ لاسيما في تصوير النساء. من اشهر أعماله: الجارية الكبيرة، كاتدرائية مونتوبون، الحمام التركي، امرأة جالسة. ينظر: J.-A.-D. Ingres | French painter | Britannica

[35] British Travelers and Egyptian 'Dancing Girls. Locating Imperialism, Gender, and Sexuality in the Politics of Representation, 1834-1870 by Robin Bunton. B.A. (Hons.), University of British Columbia, 2017 P.17.

[36] الرومانسية دونكان هيث، جودي بورهام. ترجمة: عصام حجازي. مراجعة وتقديم: إمام عبد الفتاح. ص٢٥. 1. 2002.المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ط

[37] انظر: مقدمة كتاب: القاهرة منتصف القرن التاسع عشر. إدوارد وليم لين. ترجمة: أحمد سالم سالم. الناشر: الدار المصرية اللبنانية. ٢٠١٧.

[38] المصريون المحدثون. وليم لين. ص ٧. مقدمة المترجم: عدلي طاهر نور. القاهرة. ١٩٥٠.

[39] الرومانسية دونكان هيث. م.ن.

[40] *ثانكرد Tancred زعيمٌ نورماني وواحدٌ من كبار قادة الحملة الصليبية الأولى (1112 - 1075)، أسهم في حصار القدس عام ١٠٩٩ وأصبح بعدها أمير على الجليل ثم حاكما على أنطاكية توفي بالتفيوئيد عام ١١١٢م. ارتكب مجازر بحق الأسرى إبان اقتحام القدس. انظر:

The First Crusade: The Chronicle of Fulcher of Chartres and Other Source. Peters, Edward. Materials, (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998). P. 33

[41] أساطير أوربا عن الشرق. 136.

[42] انظر: قصة العرب في إسبانيا. ستانلي لين بول. ترجمة علي الجارم. ص ٢٠. مؤسسة هنداوي. ط١. القاهرة. ٢٠١٧.

[43] صورة الإسلام في الأدب الإنكليزي. م.ن.ص ١٣٧.

[44] Travels in Arabia Deserta, Doughty, First published in 1964 by Routledge Kegan Paul Ltd, (New York:Dover, 1979), vol. I, p. 5

[45] ولد أوستن هنري لايارد في باريس ١٨١٧ – ٥) ١٨٩٤))؛ من أسرة بريطانية. وأمضى سنوات تكوينه في إيطاليا. ثم عادت عائلته إلى إنكلترا . في عام ١٨٣٩ انطلق ورفيقه إدوارد ميتفورد إلى سريلانكا ثم إلى حتى إيران. وفي عام ١٨٤٥ تم إرساله للبحث عن موقع مدينة نينوى الآشورية القديمة. بين عامي ١٨٤٥ و١٨٥١، قام بالتنقيب في مدينتي نمرود ونينوى، وأرسل العديد من القطع الأثرية إلى إنجلترا. له مجموعة من المذكرات والكتب من أهمها: المغامرات الأولى في بلاد أشور وساسان وبابل.

انظر: The National gallery Ogre. encyclopedia Austen Henry Layard. (London) 2011.

[46] Road to Ninevah: the adventures and excavations of Sir Austen Henry Layard Nora kobia.

[47] الطريق إلى نينوى. نورا كوبي. ترجمة. باسل محمد العاني. ص ٨. دار المأمون. بغداد. ط١. ١٩٩٨.

[48] المغامرات الأولى في بلاد أشور وساسان وبابل. اوستن لايارد. ترجمة: محمد حسن علاوي. دار المأمون. بغداد ٢٠٢٠.

[49] Travels in Arabia Deserta, Doughty. م. ن.

[50] الذاتُ والآخر في الشرق والغرب، صور وإشكالات، حسن شحاته، دار العالم العربي، ط١، (القاهرة ، ٢٠٠٨)، ص١٠٢.،ص٢٨.

[51] اساطير ٩٩

[52] انظر: Treatise on Insanity. Prichard J. C. London. P.92.f.ad.1835.

[53] أساطير أوربا عن الشرق. ص ١٠٠.

[54] عن: م.ن. ص٩١ – ٩٢.

Thousand night and night. Burton. Vol.1. pxvii (London). 1885.

[55] Anthropology and the Colonial Encounter. Tala1 Asad, (London, 1973) pp. 13-15.

[56] أساطير أوربا عن الشرق.م.ن. ص ١٠١.

[57] The Perfumed Garden of Sensual. Harvard college Library. (London, 1886) p. 7.

[58] كتابات الرحالة الأوربيين مصدراً للتاريخ الحضاري للمدينة المنورة من مطلع القرن الحادي عشر الهجري حتى نهاية العصر العثماني. حورية عبد الإله. أطروحة دكتوراه. جامعة أم القرى. ٢٠١٣. ص. ٩١.

[59] دويتي (١٨٤٣ – ١٩٢٦) شاعرٌ وكاتبٌ مغامر، ومتضلّع باللغة الإنجليزية؛ ولد في مقاطعة ثيبرتون، وتلقى تعليمه في المدارس الخاصة في إلستري، ودرس في مدرسة البحرية الملكية في بورتسموث. ثم التحق طالباً في كلية كينجز في لندن، وتخرج في نهاية المطاف من كلية جونفيل في كامبريدج عام ١٨٦٤. أنظر:

Doughty, Charles Montagu A Cambridge Alumni Database. University of Cambridge.

[60] David George Hogarth, The life of Charles. Doughty, Publisher: Oxford University Press, 1928, p.2

[61] Travels in Arabia Deserta, Doughty, (New York:Dover, 1979), vol. I, p. 11

[62] م.ن. ix

[63] أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. 159

[64] م.ن. 160.

[65] Europe and Empire. Norman Daniel, Islam, (Edinburgh, 1966) p. 246.

[66] Travels in Arabia Deserta. Charles Montagu Doughty.(London) 1954. vol I. P. 64.

[67] م.ن. ص ٦٦.

[68] British Orientalists. A.J.Arthur Arberry. (London, 1943) p22.

[69] الاستشراق. ادوارد سعيد. ترجمة. كمال أبو ديب. ص٥٥. دار رؤية. بيروت. ١٩٩٥.

[70] John e. Mack, Prince of our Disorder: The Life of T.E. Lawrence (Boston: First Harvard University Press, 1998) p.118.

[71] The Boy in the Mask: The Hidden World of Lawrence of Arabia. Benson-Gyles, Dick (2016). The Lilliput Press. P.22.

[72] لورنس بين الحقيقة والأكذوبة. صبحي العمري. ص ٧٣. رياض الريس. للكتب والنشر. لندن.ط1. 1991.

[73] T. E. Lawrence: from dream to legend. Wilson, Jeremy. P.53. 2016

[74] Lawrence's Medievalism. Allen, M.D.p 53-70 from The T.E. Lawrence Puzzle edited by Stephen Tabachnick, Athens: University of Georgia Press, 1984 page 53.

[75] .p 70-77. T. E. Lawrence: from dream to legend

[76] The Life of T.E. Lawrence (Boston: John e. Mack, Prince of our Disorder) First Harvard University Press, 1998)p.62-82.

نقلا عن: تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. حسين يوسف حسين. مجلة كلية التربية: 37. 2019

[77] أعمدة الحكمة السبعة. ت.أ. لورنس. منشورات المكتب التجاري للنشر والتوزيع. ط١. بيروت ١٩٦٣. ص 2.

[78] أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. 168.

[79] لورنس بين الحقيقة والأكذوبة. صبحي العمري. الناشر. رياض الريس. القاهرة.ط١.. ١٩٩١. ص 17.

[80] لورنس والعرب: وجهة نظر عربية، سليمان موسى. عمان ١٩٦٢؛ ط ٢.، وزارة الثقافة، عمان 1992. 27.

[81] م.ن. 348.

[82] أساطير أوربا عن الشرق.م.ن. 144- 145.

[83] Seven Pillars of Wisdom. T. E. Lawrence: A Triumph. (London, 1935; 1965) p.18-19.

[84] Letter of T. E. Lawrence, edited by David. Garnett. Jonathan Cape. London. 1939 Proverbs 9:1 bible hub. James, accessed 19 June 2018. P.607

[85] ويلْفريد بُلنتWilfred S. Blunt شاعر ورحالة من العصر فكتوري ولد عام ١٨٤٠ في بريطانيا. اشتهر بشعره الأنيق ومناهضة الإمبريالية. دخل السلك الدبلوماسي لكنه تقاعد بعد زواجه من الليدي آن نويل، حفيدة اللورد بايرون، وركز اهتمامه على الشعر. سافر وزوجته إلى الشرق الأوسط. وأثناء خدمته التقى بالمستكشف الفيكتوري بيرتُن، الذي أثار خياله. وكثيرا ما كتب جدالات سياسية بخصوص الشرق. ومعارضة سياسة بلده التعسفية في السودان والهند، على الرغم مِن علاقته بـ ونستون تشرشل. تم التعامل معه بوصفه شخصية أدبية مناهضة للنزعة الإمبريالية، لاسيما في كتاباته وتقاريره الناقدة للرحالة المعاصرين له؛ أنظر:

The Influence of a Poet: Wilfred S. Blunt and the Churchill, Warren Dockter, Journal of Historical Biography 10. London. (Autumn 2011): p. 70-74

نقلا عن: تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. حسين يوسف حسين. م.ن.

[86] Britannica encyclopedia- biography. Wilfrid Scawen Blunt. 1992.

[87] The Future Of Islam, Wilfred Alfrid Blunt. London. Kegan Paul, Trench & Co, 1882 P. 3-4.

[88] أساطير أوربا عن الشرق 150.

[89] Secret History of the English Occupation of Egypt. Wilfrid Blunt, (Being a Personal Narratiue o f Events) (London, 1895) p.22.

[90] تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. م.ن.